

## أن تعيش الحياة قصيدة والقصيدة حياة

أسامة عفيفي

يوصل الكتابة حياً وميتاً



● حياته فيها كثير من المشاريع المؤجلة كديوان شعر، أو كتاب عن آباء الفن التشكيلي، وكتاب عن الرواد المتأجرين بالفن، وآخر عن رموز في السياسة والاقتصاد والثقافة اكتسبت، بالتقدم، قدراً هائلاً من اليقين، رغم زيفها.

في أيلول 2016. أمل أن تتمكن من جمع دراسات ومقالات أخرى في النقد التشكيلي والثقافي، وبتاحة هذا المنجز مكملاً لسيد القارئ منهجاً جمالياً في قراءة وقائع من تاريخنا الثقافي، أدل عليه بمقدمة ما كتبه عن كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، في مجلة "المصور" في 11 يناير 2017 بعنوان "الشيخ علي عبدالرازق وأقنعة السياسة المروعة؛ وقال حينها "في دابات مسرحيات الكوميديا دي لارتي الهزلية التي انتشرت في أوروبا زماً طويلاً، وبسبب عدم إقبال النساء على التمثيل، اضطر المخرجون للعودة لاستخدام الأقنعة التي كانت سائدة في المسرح الإغريقي القديم واختفت بعد الغزاة المسرح اليوناني نظرية المساكاة الأرستية، وكانت تصنع أقنعة وباروكات نسائية يضعها الممثلون الرجال على وجوههم، ويقلدون أصوات النساء باتقان للقيام بالأدوار النسائية، لدرجة أن الجمهور كان يعتقد أن الممثل ما هو إلا امرأة حقيقية تستر وجهها كي لا تعرف".

العراق يحتل في قلبه مكانة لا يشاركه فيها بلد آخر، وكم احتفى عفيفي بالعراقيين في منابر ترأس تحريرها، وآخرها مجلة «المجلة» في بحثها الأخير، بداية من أبريل 2012، إلى أن أمر بإيقافها زميله حلمي المنعم وزير الثقافة في أغسطس 2016

وأضاف عفيفي مواصلاً تحليل ظاهرة الأقنعة «لقد استخدم بريخت هذه الأقنعة في أغلب مسرحياته مستوحياً الفن الآسيوي والإغريقي وميراث الكوميديا دي لارتي؛ ليكسر الإيهام في مسرحية الملحمي، ليؤكد للجمهور أن ما يشاهده هو تمثيل في تمثيل، لينتبه المشاهدون للرسالة التعليمية التي يستهدفها بمسرحياته. وقد يسألني سائل ما علاقة الشيخ علي عبدالرازق تلك المفارقة، ويتذكرها كدراما، ويظل العراق يحتل في قلبه مكانة لا يشاركه فيها جميعاً ومؤرخوهم أدوارهم، وصدقنا أنها كانت معركة دينية بين الرجعيين والتقدميين، بينما كان الفكر والدين مجرد قناعين للسياسة المروعة وتلك هي تراجيديا القضية». بعد هذه المقدمة يجب عليّ التوقف، والترحم على خسارة عقل جميل.

في ديوانه "أشياء تری.. وأشياء لا تری" قصيدة قصيرة عنوانها "أجنحة"، قد تلخص جانباً من شخصيته: كعباس بن فرانس المقتول بالطيران كنت أصنع أجنحة تُدبها الشمس فأسقط مرتظماً بقوانين الجاذبية العتيدة وكابن فرانس دائماً كنت أنهض لأصنع أجنحة جديدة".

ولد عفيفي في العام 1954 وتخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة القاهرة. وبعد تعرضه لتجربة اعتقال، سافر إلى العراق الجاذب للمثقفين وفنانيين مصريين من القوميين واليسار. في البداية، وبحماسة الشباب، ظل يحدو مهابة ما ترعاه القاهرة، فنبهه محمود السعدني "مصر مختلفة، ليس في عقيدة مصر وجهان مخابراتها تصفية معارض في الخارج. تركنا مصر للسادات الذي لا يقارن بصدام حسين. إذا غضب السادات على معارض فصله من عمله أو نقله إلى الصعيد، ثم يعود بحكم قضائي. صدام يذبب المعارض في الأسد. في مصر اشتغل سياسة، وفي العراق اشتغل صحافة بمعابر مهنية". فابتعد عن أي لغط سياسي وثقافي يتبع مؤسسات سياسية، وعمل في مجلة ثقافية تتبع وزارة الصحة.

ولكنه لم يسلم، وظل يؤجل مشروعاً كتابياً عنوانها "كنت صديقاً لصدام". ففي جلسة بين أصدقاء شكا أحدهم من جهاز الإسعاف، فعلق عفيفي ببراءة "صدام حسين لا يمكن أن يوافق على هذا التهوان"، واتصل بصديق في الإسعاف أنهى المشكلة، فتوهوا علاقة شخصية للرئيس بعفيفي الذي ذكر اسم صدام مجرداً. وتكررت مصادفة ثانية، فترسخ في أنفسهم اعتقاد لم ينسقه إلا تفسير أسامة، مع ختم جواز سفره بالمنع من دخول العراق. يضحك عفيفي ضاحكاً على علاقة عبدالرازق تلك المفارقة، ويتذكرها كدراما، ويظل العراق يحتل في قلبه مكانة لا يشاركه فيها جميعاً ومؤرخوهم أدوارهم، وصدقنا أنها كانت معركة دينية بين الرجعيين والتقدميين، بينما كان الفكر والدين مجرد قناعين للسياسة المروعة وتلك هي تراجيديا القضية". بعد هذه المقدمة يجب عليّ التوقف، والترحم على خسارة عقل جميل.

إسماعيل، ويذكر أن نجيب سرور رمى مجلة من رصيف شارع طلعت حرب فاصطدمت بالرصيف المقابل لمقهى ريش، واستعادها عفيفي؛ لأن له فيها قصيدة لم تعجب سرور الذي قال له في اليوم التالي "القصيدة حلوة، ومن واجبي أعضرك، لأختبر صلابتك، الشعر يحتاج إلى صلابه وجسارة، وصاحب المهلبة غير الأضيلة ينهار ولا يكمل". وساله "أنا عازمك، تشرب ايه؟".

## صديق صدام حسين

قراءة بعض من الأوراق الشخصية لأسامة وضعتني أمام جانب من ضعف شخصي أخافه بالإفراط في إظهار أصدقائه، وخوض معارك ثقافية بشرف، وناله منها ما ناله، من دون ادعاء بطولية أو إبداء امتنان، وكان يتفادى الإشارة، وإذا بادر أحدهم وذكر عفيفي بفضل ودعم في البدايات، تجاهل ذلك الفضل، وقال "هذا حقلك، وعلى من يتصدى للعمل العام أن يتمتع بالزهامة، والا يحتكم إلى هواه".

وذاذ مساء قابلته في قهوة شارع الأهرام، لاستعجل الكتاب، ورأيت معه نسخة مخطوطة من كتابه "محمد رزق شاعر اللوحات النحاسية"، عن الممثل المصري محمد رزق. قال إن صديقه الفنان والنقاد في المجلس الأعلى للثقافة طلب اختصار الكتاب، "أختصر الآن كما ترى، لأعيد بعد يومين". ولم يصدر كتابه عن محمد رزق إلى الآن، ولا أدري أين تناثرت الفصول الأربعة لمشروع كتابه "أربعون اقتراحاً للفن"، وينطلق من مفهوم التجاوز، فكل عمل فني أصيل مشروع للإضافة، اقتراح جديد يسهم به الفنان في مسار الفن. لم يتخل عفيفي عن فضيلتي الاستغناء والعناد المميز لرعايا برج النور، ولكنه أحياناً يقول "تثبت لي أن برج الجدي أصعب وأكثر عناداً من النور". ومع العناد لا يحصل لأحد ضغينة، ويعتزرت بابائه، وتحلو له رواية قصته مع الشعاعين محمود حسن إسماعيل ونجيب سرور. الأول غنى قصائد كل من أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وغيرهم، وكان يشرف على نشاط ثقافي في بيت ثقافي لعله كريمة ابن هاني. وحشد عفيفي زملاءه في المدرسة، لتشجيع شاعرهم به يلقي قصيدة، للمرة الأولى، في محفل يقدمه شاعر غنى له عبدالوهاب قصيدة "دعاء الشرق" المقررة عليهم في المنهج الدراسي، القى عفيفي ما القى، واشتعلت القاعة بتصفيق زملائه وصفيرهم، ويهدوء قال محمود حسن إسماعيل "ما سمعنا لا هو شعر التالي هو...". يستعيد عفيفي تلك الذكرى ويتزعم على محمود حسن

معرض الفنانة التشكيلية المصرية متابعتة، وهو يتحدث بصوت هامس، لكن الجدية ذات سحر خاص يعجز عن بلوغه الأفعال.

حياته فيها كثير من المشاريع المؤجلة كديوان شعر، أو كتاب عن آباء الفن التشكيلي، وكتاب عن الرواد المتأجرين بالفن، وآخر عن رموز في السياسة والاقتصاد والثقافة اكتسبت، بالتقدم، قدراً هائلاً من اليقين، رغم زيفها، وتنتظر شجاعة نادرة لإعادة النظر، ووضعها في حجمها الطبيعي، ولديه مشروع لا يريد إتمامه، باختياره هذه المرة، عن تاريخ ما تجاهله المؤرخون المحترفون أو الهواة، وما لم تقله أروى صالح عن جيل الغضب المتأجرين بالنضال.

هناك وقائع مخزية، وتاريخ أسود من شعر رؤوس شباب، أو صارت بيضاء رغم السوء. وهناك كثيرون قدمهم إلى الحياة الثقافية من خلال جريدة "صوت العرب" ومجلة "الموقف العربي" يتحدثون ذاكرته وذاكرتنا. في كل هذه المشاريع طموح كبير، وأمل في يوم يهدأ فيه اللسان، ويتحرك القلم، وهذا يحتاج إلى شجاعة يملكها عفيفي، وإلى وقت لا يتاح له، لأسباب متعددة، أولها عدم قدرة المثقف على أن يستقل اقتصادياً، بعيداً عن امتهان عمل يعيش منه، واضطاره تحت وطأة لقمة العيش إلى تأجيل مشاريعه. وهي الأبي.

وفي جميع الأحوال، يجسد عفيفي الحالة المصرية بامتياز؛ لدنى على مشروع قومي اكتمل. كل شيء يبدأ بحماس شديد ثم يتوقف، أو يتحول إلى كلام جميل، مجرد كلام عن الموضوع، وليس فيه.

سعد القرشي  
روائي مصري

لم يك أسامة عفيفي؛ فلا أستوعب عبثية المغادرة في ذلك الأحد قبل عامين. أبكيه الآن وأفتقه، وأريد تهنئته على أنه ربح الرهان، بصور ديوانه "أشياء تری.. وأشياء لا تری"، وليه ديوان "دفتر الشذرات". كلاًهما عن الهيئة العامة المصرية للكتاب، وتصدر الهيئة العامة لقصور الثقافة ديوان "سداسية الرمل والملح" الذي عُثر عليه في أوراقه، كاملاً بعنوانه وترتيبه، مكتوباً بخطه الجميل، وتنتهي قصائده بإثبات تاريخ كتابتها في نحو ثلاثة أسابيع، في مايو 1992، بين مدينتي جدة والقاهرة. إنتاج شعري عزيز سيفاج عفيفي نفسه، وهو الذي راهن على أن تكون الحياة والشعر نسفاً واحداً. عاش الحياة قصيدة والقصيدة حياة، ولم يهجم هذا الترتيب، ولم يستهدف إلا الانتساق مع ذاته، بالأ تخلق القصيدة المكتوبة عن جماليات الشعر، والأ تكون المواقف والرهانات والخيارات والانتيازات أقل شرفاً وإبداعاً من قصيدة.

## حالة الشاعر

ربما لهذا السبب فضل الحياة على "الشعر"، بصيغته التي يخلو فيها الشاعر لكتابة قصيدة. وعلى سبيل الدعاية، عرّف نفسه في صفحته على الفيسبوك "صحفي... وشاعر أحياناً". ويتأكد لي أنه شاعر دائماً، ومفهوماً للشعر أكثر اتساعاً من نشر قصيدة هنا، وديوان هناك، فعفيفي يرى الشعر في كل شيء؛ مشهد هامشي عابر ينبض بالدراما، موقف يجب اتخاذه في الوقت الصحيح إزاء قضيتها مصرية، شغف بمعرفة يسعى إلى التثبت منها وتحقيقتها، كتابات شفافية لم يكف عن روايتها باعتباره آخر الحكاين الكبار الأسريين.

ما تجنّب عفيفي كتابته أن كثرة الانتشغالات والانتكسارات والهموم تمكّنت منه، ومصرفته عن التفكير في جمع قصائد منشورة يضمها ديوان، أو تنسيق دراسات أنجزها ونشرها في مجلات وصحف، لكي يضمها كتاب، وهو ما انتبهت إليه مبكراً، في حالة عفيفي، وكتبت عنه مقالاً عنوانه "أسامة عفيفي" في مجلة "سطور" القاهرية، عدد أكتوبر 2000. "في حياتك تعبر للكثيرين من الأصدقاء، ويعبرونك. وتتوقف أمام بعض من تظنهم أصدقاء، إلى أن تتاح فرصة سفر، للتعرف إلى الإنسان، بعيداً عن الحماصات المحسوبة، والعواطف المجانية. في مثل هذه الحالة فقط يمكن أن تكتشف أسامة عفيفي، أو تعيد اكتشافه".

## على هامش الفن

مقالتي ذاك فرح به عفيفي، وضحك وتحداي بأنه سيجب قريباً نبوتي، بكتاب أو ديوان أو كليهما. وظلت كلمة "قريباً" معادلاً زمنياً لكلمة "بكرة"، ذلك الغد لا يأتي أبداً، ففي كل شروق للشمس ميلاً جديداً لغد قريب مستحيل. بعد ثورة 25 يناير 2011 بدأ مشروعاً عن الشهداء، ووضع خطة كتاب لم يكتمل، وربما شغلته تطورات تراجيدية للمشهد العام، فاكتملت بقصائد أطلق عليها ديوان "دفتر الشذرات"، منها قصيدة "شهادة" من أوراق شهيد:

سبرويك  
ميدان التحرير  
يوماً  
أنني رددت  
اسمك ثلاث مرات  
قبل أن يكف  
القلب عن النبض  
بعد أن أطلق  
القصاص المثلث  
طلقة المنيّة  
يوم موقعة الجمل:

هل صرفه عن إنهاء كتاب الشهداء جلال الشهيد الأكثر صدقاً مما التصق به من كذب؛ يجيب بشذرة "كذب":

هل استشهد النبلاء  
في ميدان التحرير  
كي يكتب الشعراء الأطلون  
قصائد أسنة جديدة  
ويصدرون دواوين  
بالاستيكية جديدة  
ويصنعون لوجوههم المشققة  
أقنعة كاذبة جديدة؟

وربما خشي أن يحشر أحد حسني النية اسمه مع زمرة المترجمين من ثمار ميدان التحرير، ولو بالنقاط صورة يتباهون بها، فكتب شذرة عنوانها "بلا صاحبة":

كل من التقطت له صاحبة  
صورة بجوار دبابه أو مجنزرة  
في ميدان التحرير  
أصبح بالوثائق ثائراً  
إلا أنا  
فقط  
لأنني بلا صاحبة.

